رواية

إلى أن يأتي الغروب

عمر طارق المغربي

إلى أن يأتي الغروب

روايـــــة

عمر طارق المغربي

الدار الفينيقية للنشر والتوزيع

إلى أن يأتي الغروب

الكاتب:

عمر طارق المغربي

الكتاب:

إلى أن يأتي الغروب

سنة الاصدار: 2025

صدر عن: الدار الفنيقية للنشر والتوزيع

الطبعة:

مكان الاصدار: بيروت/ حي البياض/ مكتب الدار الفنيقية

©"جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة لصالح الدار الفنيقية للنشر والتوزيع. يُحظر نسخ أو إعادة إنتاج أو توزيع هذا العمل بأي شكل من الأشكال دون إذن خطي مسبق من الدار. أي انتهاك لحقوق الملكية الفكرية سيعرض مرتكبه للمساءلة القانونية."

®"تم تنسيق الكتاب وتدقيقه، بالإضافة إلى تصميم صورة الغلاف، بواسطة فريق دار الفنيقية للنشر والتوزيع، حيث نحرص دائمًا على تقديم أفضل جودة وأعلى مستوى من الإبداع لتلبية احتياجات قرائنا الكرام."

الدار الفنيقية للنشر والتوزيع

إهداء...

إلى التي سألت السماء عنها ولم تجب...

أرفعُ هذه السطور...

لحنٌ يخاطبُ قلبي

مرت بسرعة تلك السنين التي لم أحسبها، مرت وكأنها أصرت على عدم البقاء، وكأنني أنا المنفي فيها، فلا أعرف عنها شيئًا ولا تعرف عن وجودي. سنين حمقاء، لا ترى سوى الظاهر، أم أنني الأحمق الذي لا يعرف سوى البقاء في حفر النسيان؟

ها هنا، يا عمري، تفنى... ها هنا، يا عمري، تموت... ها هنا، يا عمري، تبقى. جلمودٍ ينتظر تلك الشمس التي لن تشرق ليذوب، ها هنا تركن خردةٌ قديمة، لا يعرف عنها سوى بعض المارين في هذه الحياة...

الحياة، وما أدراك ما الحياة...

تعيش فيها وتعيش فيك، تنازلْ من أجلها، وعندما تقف على شفير الهاوية، تلقيك. وكأنها لا تريدك، أو كأنها لم تحسب وجودك من قبل. استيقظتُ على غفلة، شعرتُ بوجودك، ثم بنسيان الأيام خلدتك...

فأصبحتُ منسيًا، أيها الغريب...

ومن منا ليس منسيًا؟ من منا ليس غريبًا؟ السلام على قلوبكم، أيها الغرباء، أيها المارون صدفةً في هذه الحياة. سلامٌ لقلوبكم العاشقة حتى تكره، سلامٌ لعيونكم المفتونة حتى تشمئز. فأنا، أيها الغرباء، أصبحتُ وكأني أنتم... غريب.

أكتب لغريبة، لا تعرف عني سوى أنني عشتُ معها حقبةً من الذكريات، لا تعرف عني سوى ذلك الطفل الشريد، ذو الهيئة المتينة. لا تعرف عني سوى صورٍ، لعلها أيضًا نسيتها، أو ربما تعرف من أنا اليوم... أو كيف أمسيت؟ كيف غير العمر ملامح وجودي؟ كيف لعقلي الصغير أن ينضج؟

حديثي معكِ اليوم عني... عن حالي... كيف أصبحتُ. لا، أنتِ لا تعرفينني، سوى نفسكِ. لا تعرفين إلا ما تريدين، وما تحتاجين. ثم بكل وقاحة، تجرئين وتقولين بأنني أنا لم أعترف! وكيف؟ وما السبيل إلى قلبك؟ إن كنتِ قد أغلقتِ جميع الدروب، وأضرمتِ بقلبي المنسي لهيب الشوق الأزلي، فأصبحتُ ضائعًا، أتألم بشرود، وأعود إلى خوابي ذكرياتنا معًا، فأسكر من نبيذ أحاديثنا وأذوب... أضيع...

يظهر لظهري، على حين غرةٍ مني، جناحان، فأصبح أطير، وأرتفع من ذلك المكان... وأصل... إلى أين؟ إلى ذلك المكان الذي ضممتِني فيه ذات مرة، إلى تلك اللحظة التي توقف عندها كل شيء. وها هي السنين تمرّ، وأنا بقيت هناك، عاجزًا عن ترك تلك اللحظة.

ها أنا أبصركِ من جديد، بلباسكِ الأسود، في ذلك المكان المكتظ بآلاف الناس. أمدّ لكِ يد السلام، لكنكِ فتحتِ ذراعيكِ وجذبتِني نحو حضنكِ الآمن. اختفى كل شيء، وتوقف الزمان، حتى البشر المتواجدون آنذاك، لم أعد أشعر بوجود أحدٍ إلاكِ.

ومن بعدها... رحلتِ. إلى أين؟ لا أعرف... كل ما أعرفه أننا عدنا كما كنّا... غرباء، لا نعرف السبيل إلى قلوب بعضنا. لا شك أنكِ أحببتِ غيري، لا شك أنني اليوم أصبحتُ ذكرى. وكيف له ذلك؟ كيف له أن يغازلكِ، أن يضمكِ، أن يحملَكِ إلى أرض العاشقين بين يديه؟

وأنا... أنا من بكيتُ على ذكرياتنا كل ليلة، أنا من سألتُ الغرباء عنكِ وعن الأحوال، أنا من دعوتُ لكِ في كل صلاة، وكنتِ أمنيتي الوحيدة التي لا أريد سواها.

هكذا... أصبحتُ منسياً، أيتها القلوب المنسية... هكذا أرهقني الشوق، حتى أضحت حكايات حبي هجينةً، عنقاءً تولد من رحم رماد الفراق.

والآن... كم مرة؟ سنةٌ أم سنتان؟ بل ربما عشر؟ لا أدري. لا أعرف المكان ولا الزمان! لا أعرف سوى أنني علقتُ هناك، في تلك اللحظة التي متُّ فيها.

آهٍ... لو تعودين على قوارب الاشتياق، وفوق شواطئ قلبي تموجين، وأرتّل لكِ آيات الحب المخضبة بالحنين... آهٍ، آهٍ لو تعودين...

فإن عدتِ، سأسامحكِ على كل تلك الجراح التي تسببتِ لي بها، من دون قصد... أو لعلكِ كنتِ تدرين، وتفرحين بتدميري؟ فقط... عودي... وأنا مستعدٌ أن أعتذر. أعتذر عن

دموعي التي ذرفتها من أجلكِ، عن الجراح التي جرحتِني
إياها، عن كل لحظة تخليتِ فيها عني.

سأعتذر، وإن لم أكن سبب المواجع... فقط لكي تبقَي
بقربي. أسطورتي المظلة، التي لا أرغب برحيلها يومًا ما...

أسطورة... نعم، أنتِ أسطورتي المفضّلة، التي لن تصبح
واقعية أبدًا، ومع ذلك ظللتُ متمسكًا بوهم عودتكِ إلى
أرضي، كعودة تنانين الحبّ بعد قرونٍ من الانقراض، ظللتُ
على أمل أن تعودي، عودة قدموس من بلاد الإغريق التي
لن تكون. ترُى، أكنتِ كأخته أوروبا، زوجةً لذلك الثور
المنكر الذي اختطفكِ وأهداكِ أرضًا طيبة، فأصبحتِ ملكتها؟
أتراكِ بعيدة إلى هذا الحدّ، أيتها المستبدّة؟

أين كنتِ؟ وكيف كنتِ؟ صدّقيني، لم أعد أهتمّ... تقنعينني بأنكِ مجرّد أوهام تعيش في أوراق مذكّراتي، ولكن ماذا بقي منكِ غير هذه الأوراق؟ غير تلك الرسائل التي كنتُ أكتبها لكِ بجنون، وكأنني أبصركِ وأخاطبكِ بها؟ يا ويلتي من قبحي عقلي، يا ويلتي من جنوني المزعوم... عودي، أيتها المجهولة، واحملي هذه الأوراق، وألقي بها في نيران غجرية تكوي كل شيء، فأنا لم أعد أقوى على حمل هذه الأثقال أكثر، لم أعد أقوى على إحراق ما تكوّم بين سطوري من لعنات الحب، وشرود المشاعر، وولهان القلب.

تعالى من مغيبك ولو لمرةٍ واحدة، خذي رسائلي، وإن شئتِ، لا تقرئيها... فقط تخلّصي منها تمامًا كما تخلّصتِ مني، ارميها

وحلّقي بعد ذلك إلى أرضكِ تلك، إلى مملكتكِ المظلمة التي لم تختر سوى أن تكون بقرب آخر، والتي لم تختبر أن تحكم إلا مملكة قلبه...

ويستمرّ صراعي بفقدكِ، وأهمس لنفسي في سرّي المكتوم: "لا شكّ أنني سأنساكِ غدًا..."، تصوّرين؟ لقد انقضت عشر سنوات، وذاك الغد لم يأتِ بعد. ولكنني أؤمن أنه سيأتي يومًا ما...

بعد الرحيل... رحيل من؟!

رحيل جسدي؟ أم روحي؟ أم دقات قلبي؟ أم هو رحيلي أنا، من دنيا الشعور المؤلمة هذه؟

كلما ظننتُ—مجرد ظن—أنني سأمضي قدماً وأنساكِ، وجدتني أغرق فيكِ من جديد، أغرق... وأغرق... حد اللعنة!

أتذكّر تلك الأيام...

أتذكّر ذلك اللقاء...

أتذكّر ليالينا الطوال، تلك الليالي المجهولة، التي صارت الآن أثرًا ضائعًا في نسيان السنين...

أتراكِ تذكُرينها؟!

أكادُ أُقسِم أنكِ لا تفعلين... أكادُ أُوقن أنكِ لن تعودي...

لن تكوني لي أبدًا، يا ذات الشعر الأسود المشؤوم!

بيروت عام 2024

في تلك الليلة الحالكة...

كان كانون قد تمكّن من النفوس، ومدّ شرائع صقيعه في المكان. رأيتُ الأرض متصلبة، مرتجفة، كأنها ترتعد خوفًا لا بردًا. الأشجار العارية تمايلت كأطيافٍ هائمة، ترتجف رعبًا تحت وطأة العاصفة، وكأنها تدرك سرّ هذا الليل الطويل.

خلت الشوارع من العابرين، حتى الجوار لم يعد لهم أثر، والحيوانات هرعت إلى مخادعها، تتكور على نفسها خشية البرد، بحثًا عن الدفء والراحة. كان القمر نائمًا بلطف خلف تلك الغيوم السوداء، التي تعانقت ببعضها كما تتعانق عاشقة ولهانة بحبيبها بعد سنين من الغياب. ولكنّها، بفعل الشوق، أسقطت دموعها بلا توقف، كأنها تعتذر للسماء عن لهفةٍ لا

تُغتفر، فابتلّت الطرقات، والمقاعد، وكل شيءٍ نام خارجًا في تلك الليلة.

أما أنا، وسط كل ذلك، كنتُ كعادتي أسير تحت المطر، غير آبهٍ بلسع البرد، ولا بدموع السماء، ولا حتى بأنين الأرض وتوجّعها. كنتُ فقط أحاول الهروب... أحاول التخلّص من ذلك الجلمود الذي توسّد عالمي، من ذلك الشعور الثقيل الذي لا تذيبه نيران ولا تكسّره عواصف.

فأينَ أنتَ يا برد الشتاء من جمود مشاعري؟
أينَ أنتَ من فورة أحلامي وآلامي؟!

أينَ أنتَ يا برد الشتاء من هذيان نفسي وشرودها؟ أينَ أنتَ من ذلك الطوفان الذي يجتاحني كلما حاولتُ أن أنسى؟

في تلك الليلة الحالكة، وسط الظلام، لمحتها...
كانت تقف هناك، تمامًا كما حفظتها في ذاكرتي، بشعرها الأسود الطويل وملامحها الهادئة، لكن شيئًا ما كان مختلفًا... لم تكن هي ذاتها، بل نسخة أخرى منها، أكثر نضجًا، أكثر جاذبية، كأن الزمن زادها بريقًا وأخذ مني كل شيء.

توقفتُ في مكاني، تجمدت قدماي، شعرتُ بأسناني ترتجف، لكن ليس من البرد... كان الشوق الذي يغلي في دمي هو من جعلني أرتعش، هو من أسقط عني قناع القوة الذي اعتدتُ ارتداءه. انتفض قلبي، وأحسستُ بالدماء تندفع إلى رأسي

دفعةً واحدة. للحظة، أو لعل الزمن كله توقف، تأملتُ المجهول في ذلك الصمت العجيب الذي غمرني بكلي... وأخيرًا، نطقتُ اسمها، كمن يحيي روحًا ماتت ثم عادت إلى الحياة:

"ماريت..."

هناك، في تلك اللحظة، عانقني الحب مجددًا، ونزلت الدموع من مقلتيّ اللتين ظننتُ أنهما قد تجمدتا منذ قرون. تناسيتُ المطر، تناسيتُ البرد، تناسيتُ كل شيء، واتجهتُ نحوها بخطواتٍ مرتجفة، كأنني أسير على خيطٍ رفيع بين الحلم والواقع.

لكن قدماي توقفت فجأة...

من هذا؟!

ظهر من خلفها رجل فارع القامة، جميل الهيئة، ذو لحية وشعر كث، يحمل على ذراعه طفلًا صغيرًا. كان يسير نحوها بخطواتٍ واثقة، مليئة بالحب، وحين وصل إليها، احتواها بذراعيه وطبع قبلةً على خدها الأيسر، ثم نظر إليها بعينين لمحتُ فيهما السعادة التي لم أعرفها يومًا. رأيتها تبتسم له، ثم تداعب طفلها بلطف، وتعبث بلحية ذلك الغريب كأنها وجدت عالمها الذي لطالما بحثت عنه... بعيدًا عني.

ألن أبكي الآن؟!

ألن تتجرأي يا عيني على معاقبتي بالدموع؟

دعيني أبكي على نفسي، دعيني أنفض هذا الحزن الذي يعتصرني، فما البكاء إلا راحة أمثالي. وكيف لا؟ وكل لغات الحزن تعجز الآن عن وصف ما أشعر به! دعي الدمع ينهمر، دعي الحزن لي رفيقًا، دعيه يقتسم معي وحدتي، فما عاد لي غيره...

أما أنتَ أيها الحب الغريب، فاحمل حقائبك وارحل عن أرضي، لا تعد أبدًا، فإني أُحرِّم عليك قلبي، كما حرمتني أنت منها. أنفيك كما نفتني الأيام إلى منافي الوحدة والخنوع.

الرجال... آهٍ لهم!

كم يظلمهم المجتمع! كم يحكم عليهم بالقسوة، وكأنهم لا يُسمح لهم أن يبكوا، أن يحبوا، أن يضعفوا! بالله كيف لهم أن يعيشوا هكذا؟ كيف لهم أن يكتموا كل شيء ويظلوا أحياء؟!

الرجل الحقيقي ليس من يكبت مشاعره، بل من يمتلكها دون أن تمتلكه.

نعم، الرجال يحبّون، يبكون، يعبّرون... لأنهم بشر، لأنهم أحياء!

لا تحرمونا أعظم صفة أنعمها الله علينا: إنسانيتنا. دعونا نكون أحرارًا في مشاعرنا، ففي النهاية، الله خلقنا هكذا... لا تابعين لأحد، ولا مكبّلين بقيد زائف اسمه "الرجولة"!

ومتى سنعي هذه الحقيقة؟!

نظرتُ طويلًا إلى الفراغ...

عيني كانت ترى تلك الغريبة التي أعرفها تقف مع مجهول، لكنني كنتُ كمن هاجر الوجود، كمن أصبح غريبًا عن نفسه، كمن تخلّى عن الواقع وتسلق حبال المجهول... ومن هنا، راحت ذاكرتي تعصر لي حكايات الماضي، حكايات الحب الأول، اللقاء الذي لم أتوقعه أن يكون... وياليتهَ لم يكن.

بيروت، عام 2019

كانت الشمس تحتضن بيروت بكل حب، تعبث بزواياها، تنفذ إلى شوارعها الضيقة، تتسلل بين الأزقة، تطبع قبلاتها الحارقة على وجوه العابرين. صوت الباعة يعلو في كل مكان—بائعو الخبز، والخضار، والحليب، والملابس— كأن المدينة كلها قد تكدّست فوق بعضها، وكأن الجلود تكاد تشتعل تحت أشعتها اللاهبة، فتفوح في الهواء روائح العطور ممزوجةً بملح الأجساد.

وسط كل ذلك، كان يسير بصمت، يندس بين الجموع، يحمل في يديه كتباً، ويضع فوق عينيه نظارات طبية زجاجها

يعكس وهج النهار. عيناه تجوبان المكان، يبحث عن ظلٍ يحتمي به، يتسلل إلى زوايا الأرصفة هربًا من الحرّ. وعلى طول شارع الحمرا، كان يبتسم لكل غريب، يحيّي الباعة الذين اعتادوا على رؤيته في مثل هذا الوقت من النهار. بشَعره الخفيف ولحيته القصيرة، كان مألوفًا بينهم، حاملاً كتبه، بسمته الهادئة تزيّن أسنانه المتفرقة.

وأخيرًا، بلغ مقصده... المكتبة.

بخطواتٍ سريعة، دفع الباب الزجاجي، فأصدر الجرس الموصول به رنينًا خفيفًا. ارتفعت عينا العم وهيب، أمين المكتبة، نحو الداخل. وما إن رآه، حتى انفرجت أساريره،

وارتسمت على وجهه تلك الابتسامة الهانئة التي تبعث الطمأنينة، ورمى عليه التحية:

- كيف حال كاتبنا اليوم يا ترى؟!

هزّ عمر رأسه، وبادله التحية والابتسامة وهو يجيب:

- الحمد لله على كل نعمة أنعم بها علينا، ولولا فضله ما كنا هنا، يا عم وهيب. أنا بخير، لكن على ما يبدو الشمس ليست كذلك! ترى، هل أزعجها القمر بشيء؟ أم أن النجوم تباهت بجمالها أمامها؟ تبدو لي اليوم وكأنها أنثى غاضبة من بعلها، تفيض على الأشياء بلهيب غضبها!

ضحك العم وهيب، وهزّ رأسه بحكمة قائلاً:

- الشمسُ كعادتها يا ولدي... كنفس الإنسان، تأمره بالسوء، فتشتعل، وتفيض، وتحرق، ثم بعد أن تستجيبَ لرغبتها، تستكين... وتغيب. والعاقلُ من يعي أن النفس تؤدَّب، كما الشمس تغيب.

أردف عمر ممازحًا وهو يقلّب رف الكتب المقابل:

- ألم أقل لكَ إنك فيلسوف؟

ارتفع صوت قهقهة العم وهيب وهو يجيب:

- من لم يختبر الحياة، ولم يصبح فيلسوفًا، فهو أحمق يا ولدي!

فالحياة فلسفة، والحب فلسفة، والموت، الحياة، الحزن،

السعادة... كل شيء في هذا الكون سؤال! ومن لم يسأل، لا يفكر، ومن لم يفكر، فهو غير موجود... لأنه يهين أعظم نعمة وهبها الله للإنسان: العقل!

أدار عمر نظره إليه مبتسمًا، وقال بنبرة مداعبة:

- لكن أليس من العقل أن ندرك حدود العقل؟ هكذا يقول محفوظ!

هز العم وهيب رأسه بحكمة وردّ:

- العقل حجة على كل إنسان، فإذا وُجد، صار لزامًا على صاحبه أن يكون حاضرًا في هذه الحياة، أن يتفاعل مع مجتمعه، تمامًا كما يتوجب عليه أداء شرائعه الدينية. لكن ماذا لو تُرك هذا العقل دون تنمية؟ هل سيعمل؟ وإن نمّي، هل

سيحسن استخدامه؟ لهذا، يا ولدي، علينا أن نلزم حدود عقولنا في كل الأحوال.

ابتسم عمر، وقال وهو يسحب كتابًا من الرف:

- ما أضاع الإنسان يومًا غير الجهل... فالجاهل يتصرف وفق إملاءات نفسه ومجتمعه الشاذ، ثم ينسب أفعاله الوضيعة لما يسميه "العقل"، وهو أعزكم الله... لو ضُرب بالحذاء لصاح الحذاء: بأي رأسٍ أُضرب؟ بعض العقول ليست عقولًا... بل مجرد فلتات، يا عم وهيب... فلتات.

همّ العم وهيب بالرد، لكن صوت رنين الباب قاطعه. رفع عينيه نحو الداخل، بينما انغمس عمر في متاهات الكتب التي تمرح أمامه.

- مرحبًا بجميلتنا...

قالها العم وهيب بترحاب، لكن الصوت تلاشى عند مسامع عمر الذي كان قد غاص في عالمه الخاص.

مرت الساعات سريعًا...

اختار عمر رواية "الأجنحة المتكسّرة" لجبران، ثم توجه إلى أمين المكتبة قائلاً:

- سأخذ هذه.

قطب العم وهيب حاجبيه، وقال متبرمًا:

- تبًا لجبران! ألا تعرف غيره؟! نفس الرواية كل مرة!

ضحك عمر وأجاب:

- جبران من الفلاسفة والكتّاب العرب المهمين، خصوصًا عندنا في لبنان... أمّا هناك أحد لا يحبه؟

ألقى وهيب بالكتاب في كيس ورقي وقال بامتعاض:

- نعم، أنا... لديّ ذكريات سيئة معه.

رفع عمر حاجبًا بدهشة:

- أنت تكره ذكرياتك، لا جبران، أيها العم وهيب! أخبرني، لماذا تصب جام غضبك على هذه الرواية بالذات؟!

أجاب العم وهيب بمرح، وعيناه تلمعان كأنهما تريان شابًا عشرينيًا لأول مرة:

- لقد أهدتني إياها فتاة، أحببتها من كل قلبي... لكنها تزوجت بآخر، لأنه كان ثريًا.

لم يستطع عمر تمالك نفسه، فضحك بصوت عالٍ:

- يا للهول! حسبتك لا تمتلك قلبًا، عم وهيب! على كل حال، لا أمان للنساء!

جاء صوتٌ ناعمٌ لكن غاضبٌ من خلفه:

- انتبه لكلامك، أيها الرجل!

أدار عمر وجهه نحو مصدر الصوت... فإذا بعينين بنيتين تشعان بالغضب، تتراقصان بين السخرية والتحدي. كان لصوتها وقع خاص، كأن موجات قلبه التقطته قبل أن تصل إلى أذنيه.

- لا أمان للنساء؟ وماذا عنكم أنتم الرجال؟! لا أمان لأي جنس طالما لم يحتوِ بعضُكم بعضًا، ولم تنل علاقتكم الثقة الكافية، يا هذا!

ابتسم عمر ونظر إليها، ثم قال بخفة:

- عذرًا، سيدتي، لم أقصد الإهانة، لكن لدي اسم، وهو "عمر"، ولستُ "هذا"! طالما أنكِ سمعتِ الحديث كاملًا، فلا شك أنكِ سمعتِ اسمي أيضًا، يا "هذه"!

رفعت حاجبًا ساخرًا، وقالت بنبرة لا تخلو من تحدٍّ:

- أنا ماريت... ولستُ "هذه" كذلك!

ضحك عمر وهو يردّ بخبث:

- تشرّفنا... لكني لم أسأل!

نظرت إليه بامتعاض، حملت الكيس الورقي عن الطاولة، واستدارت خارجةً من المكتبة، وهي تلعنه في سرّها.

نظر العم وهيب إليه بطرف عينه، ثم قال متهكمًا:

- يا لك من سليط اللسان، يا عمر! هكذا تحدّث فتاة لأول مرة؟!

هز عمر كتفيه وقال:

- يا لكم من مجتمعٍ أبله! تطالبون بالمساواة، وها أنا أساوي! أعاملهم كما أعامل الرجال ذوي الأنوف الطويلة! لكن لا، أنتم تريدون المساواة في الحسنات فقط! مجتمعٌ تافه، لا يعرف حقوقه من الأصل، لكنه يطالب بها!

قهقه العم وهيب، وقال بمكر:

- أتساءل... من تلك التي سترضى بكَ زوجًا؟

ابتسم عمر وأجاب بثقة:

- بالطبع، ليست فتاةً كهذه!

ثم حمل كيس الكتب، ولوّح بيده مودعًا، وهو يقول:

- إلى اللقاء، عم وهيب... أراك الأسبوع المقبل.

راقبه أمين المكتبة وهو يخرج، ثم همس لنفسه:

- وهل يختار القلب من يحب، يا عمر؟

******

اندسّ عمر بين الجموع المتكدسة في شوارع الحمرا، يتنقل بخفة، منتشياً كعادته بعد اقتناء كتب جديدة. كانت فرحة شراء الكتب بالنسبة له لا تعادلها أي فرحة أخرى. فالكتب ملاذ كل تائه، وعلاج كل مريض فكري، والروح التي تُبث فينا حين نكون حطامًا، فنولد من الرماد كطائر العنقاء.

رفع الكيس وفتحه بشغف... لكنه سرعان ما توقّف عن المشي. تلاشت ابتسامته وهو ينظر إلى محتوى الكيس:

"الجريمة والعقاب" لدوستويفسكي؟! لكنه لم يشترِ هذا الكتّاب!

نظر حوله بارتباك، ثم تذكر... لقد أخطأ كيسه مع كيس تلك الفتاة، ماربيت... أو أيا كان اسمها!

ركل الأرض بقدمه غاضباً، ثم استدار عائدًا نحو المكتبة على نحوٍ سريع، حتى اقتحم الباب قائلًا بصوتٍ منفعل:

- تلك الفتاة... سرقت كتبي!

ضحك العم وهيب بهدوء وردّ بنبرة ساخرة:

- على رسلك أيها الأبله! لعلها أخطأت؟

ردّ عمر بحدّة، وهو يلوّح بالكيس في الهواء:

- ما هذا الخطأ العجيب؟! لقد أخذت كيسي، وهذه سرقة! أين سأجدها؟

تأمل العم وهيب وجهه الغاضب، ثم ابتسم وقال بمكر:

- أحيانًا أقول إنك عاقل، وكاتب ذو وعي... وأحيانًا أراك طفلًا لم ينضج بعد.

رفع عمر ذقنه بعناد وردّ بحماس:

- أنا طفل صغير أمام كتبي، طفل لا يكبر أبدًا معها!

هزّ العم وهيب رأسه وهو يبحث في درج مكتبته، قبل أن يمدّ له ورقة صغيرة وهو يقول:

- خذ، هذا عنوانها. استرجع كتابك بنفسك. لكن رجاءً، لا تعد حتى الأسبوع القادم، لقد شبعت جدالًا معك! فأنت لا تجادل بحق!

تراجع عمر خطوة للخلف، ثم ابتسم بمرح وهو يعدل نظاراته قائلًا:

- حسنًا يا ذا الفلسفة المكذّبة للوجديات!

رفع العم وهيب حاجبه وهو يردّ بمكر:

- أنا لست كذلك، والفلسفة ليست كذلك أيضًا، اسمع...

لكن عمر كان قد استدار بالفعل، متلهفًا لاستعادة كتبه، وكأن روحه قد سُرقت مع ذلك الكيس.

فيك شيءٌ مني

حينَ تلتقي الأرواح عبر الورق...

وقف عمر أمام المبنى الأبيض الطويل، متأملًا واجهته الصامتة، شعر للحظة أنه مكعبٌ ضخمٌ لا نهاية له، وكأنه امتدادٌ لحيرته. نظر حوله، الشوارع شبه خالية، والهدوء يخيّم على المكان كأن المدينة قد تواطأت مع القدر لتزيد من غرابة اللحظة.

تمتم ساخرًا:

- هل جئت إلى قريةٍ بالخطأ؟ أكاد أجزم أنني في المدينة... بحق الإله، أين أجدها؟

رفع رأسه نحو الأدراج التي تؤدي إلى الباب، تنهد استعدادًا لمغامرةٍ ظنّ أنها ستُرهقه... لكن بالكاد صعد درجةً واحدةً حتى انفتح الباب أمامه فجأة.

وقف متجمّدًا، يحدّق بها.

كانت تقف هناك، بشعرها الأسود الذي انسدل على كتفيها، وفستانها الأسود الطويل الذي بدا كامتدادٍ لظلّها. في عينيها لمعة دهشة، وكأنها لم تكن تتوقع أن تراه هنا، كما لم يكن هو يتوقع أن يرى هذا الجمال في بساطة الموقف.

قطبت حاجبيها باستغراب وسألته:

- أنت؟ ما الذي جاء بك إلى هنا؟

كاد عمر أن يردّ بسخرية، لكنه تساءل في داخله إن كانت لم تلاحظ خطأها بعد... خفّف من حدّة نبرته وأجاب:

- جئتُ لاسترجع أطفالي.

رفعت حاجبًا بدهشةٍ ساخرة:

- وهل قال لك أحدهم إن منزلي حضانة؟

ابتسم بعفوية:

- أقصد كتبي... لقد أخذتِ الكيس الخاطئ.

ساد الصمت لحظة، ثم أدركت خطأها، احمرّت وجنتاها قليلًا، وردّت باعتذارٍ خجول:

- أوه... أنا آسفة، لم أنتبه.

- لا عليك، ما من مشكلة.

تراجعت خطوة للخلف، ثم أشارت له بالدخول:

- تفضّل، سأجلب لك الكيس.

تردّد قليلًا قبل أن يعبر العتبة، لكنه فعل. وما إن دخل حتى اتسعت عيناه بدهشةٍ صامتة.

كان المكان... مختلفًا.

الجدران ليست مجرد جدران، بل لوحاتٍ ممتدةٍ من الألوان والرسومات، وكأنها صفحاتُ كتابٍ مفتوح. الكتب متراكمة هنا وهناك، مكتبةٌ كبيرةٌ تحتل أحد الجوانب، رفوفها ممتلئةٌ وكأنها تتنفسُ بالحروف. وعلى الزاوية كان هناك مرسمٌ صغير، أوراق مبعثرة، لوحاتٌ لم تكتمل، وألوانٌ تخلّف بصماتها على الطاولة.

- أعتذر، منزلي غير مرتب جدًا، لكن...

قاطعها عمر بنبرةٍ متحمّسة:

- أتمزحين؟! هذا منزل أحلامي... لقد بدأتِ في إدهاشي أيتها الفتاة!

ابتسمت في سرها، ثم علّقت بمكر:

- غريب، قبل قليل كنا - نحن النساء - تافهات في نظرك.

ضحك عمر بصوتٍ خافت، ومرر يده بين رفوف الكتب قائلاً:

- ليست القارئة بتافهة... كنتُ أتحدث عن تلك التي باعت روحها من أجل المال.

- المال حاجةٌ أساسية في هذه الحياة.

- لكنه ليس الحياة... الله يرزق، هناك من يعمل عملًا غير مشروعٍ ولا يُبارَك له بليرة، وهناك من يكسب بالحلال أكثر مما توقع. عند القلوب الصادقة، تسقط معايير الجيب والهيئة.

توقفت للحظةٍ، ثم قالت بصوتٍ هادئ:

- أعتذر لأنني تنصّتُ على حديثكما في المكتبة، لكن كلامك لفتني.

أجاب عمر وهو يتنقّل بين الكتب بعفوية:

- لا عليك... وأعتذر أنا على الطريقة التي خاطبتُكِ بها هناك.

وفجأة، وقعت عيناه على كتابٍ مألوف... سحبه من الرفّ وتأمله للحظةٍ قبل أن يبتسم ويقرأ العنوان بصوتٍ مسموع:

- "رقصة السماء"؟!

شهقت الفتاة بحماسٍ طفولي:

- هل تعرفها؟! إنها من مؤلفات عمر المغربي الشهيرة، واحدةٌ من أمتع قصص الحب التي تمزج بين علم النفس والفلسفة! أحبّ طريقته في السرد... وأعشق الحبكة التي ينسجها.

نظر إليها بدهشةٍ مصطنعة، ثم علّق:

- لم أكن أعلم أنكِ من معجبيني.

قطّبت حاجبيها باستغراب:

- ماذا؟

استدار نحوها، وابتسم ابتسامةً خفيفة وهو يقول:

- أنا كاتب هذه الرواية.

ساد الصمت لثوانٍ... نظرت إليه بعينين متسعتين، غير مستوعبةٍ لما قاله... حتى قاطعها عمر بصوته الهادئ:

- الكتب، من فضلك.

تلعثمت وهي تجيب:

- آه... آه، حسناً...

لكن في داخلها، كانت تدرك أن هذه اللحظة لن تمرّ عبثاً

لم تكن لحظةً عابرة، ولم تكن صدفةً عادية، بل كانت بدايةً لشيء لم يستطع عمر تجاوزه... تلك الفتاة التي قلبت كيانه، والتي بدأ يشعر أن قلبه ينبض لها، رغم أنه كان يخشى أن يمنح نبضاته لأي أحدٍ مجددًا.

ماريت...

كان اسمها يُقال كثيرًا في رأسه، يكرره دون وعي، يعيده على لسانه كما لو كان نشيدًا مألوفًا منذ الأزل. ذات مرة، وبينما كانا يحتسيان القهوة في ذلك المقهى الدافئ، سألها عن معنى اسمها، فأجابته بابتسامةٍ هادئة، تلك الابتسامة التي صارت فيما بعد نقطة ضعفه:

- سمّاني والدي به لتمجيد قصة حبّهم. كان يخشى الاعتراف لأمي بحبه، فكان يقول لها "ماريت"، كلمة اخترعها هو وتعني "أحبك"، ووالدتي لم تفهم ذلك إلا فيما بعد. وحينما حملت بي، قررت أن تحمل هذه الذكرى إلى الأبد.

ابتسم وهو يبادلها النظرة، وقال بنبرةٍ نصف جادة، نصف حالمة:

- يقال إن لكل فردٍ نصيبٌ من اسمه، يعني أنكِ عشتِ قصة حب سعيدة؟

لكن نظرتها تغيرت، أشاحت بعينيها بعيدًا، وكأنها تحاول أن تستعيد ذكرى ثقيلة، قبل أن تهمس:

- لا أدري إن كنت قد عشتُ قصة حبٍ حقيقية، لكن كان هناك شاب... عشتُ معه طفولتي، أحببته بجنون، كنتُ أشتاق إليه حتى وهو بقربي، وكان حبنا عظيمًا. ثم اعترف لي

بأنه يحبني، وبعد فترةٍ وجيزة، تقدّم لخطبتي... لكن لم يحالفنا الحظ، وانفصلنا قبل أن نكمل الطريق معًا.

شعر عمر بوخزةٍ في قلبه، وكأن ظلًّا قد مرّ بينهما للحظةٍ خاطفة، فقال معتذرًا:

- أعتذر إن كنتُ قد نكأتُ جراحًا قديمة.

لكنها ابتسمت، ابتسامةً لم تكن حزينةً ولا سعيدة، مجرّد استسلامٍ هادئ للحياة:

- لا عليك، خياراتنا ليست آلامًا، بل حلولٌ اختبرناها للنجاة. من الصعب التأقلم مع من لا يشبهنا... غريبون نحن البشر.

تنهد عمر، وتفكّر في كلامها قبل أن يهمس:

- بل الغريب أرواحنا... كيف لها ألا تستأنس إلا مع من يشبهها؟

توقفت قليلًا، وكأنها تفكّر في إجابة، لكنها بدلاً من ذلك همست:

- بل أحبك.

صمتٌ طويل.

صمتٌ ارتجف له قلبه.

تسارعت دقاته، شعر أن العالم قد توقف، أن الكون كلّه قد ضاق ولم يبقَ فيه سوى عينيها. اندفع الدم إلى وجهه، دقت طبول الحرب بداخله، وكأنه كان في معركةٍ بين عقله وقلبه، ثم بعد لحظاتٍ من الصمت، لم يكن أمامه سوى أن يردّ بنفس الصدق:

- أنا أحبك أيضًا.

لم يعرفا كيف مرّت الأيام، لكنها مرّت كأنها رياحٌ دافئة في ليالي الصيف، وكأنها فصولٌ مسرعةٌ من روايةٍ جميلة.

خمسة أشهرٍ فقط... لكنها كانت تعادل عمرًا.

الكتب جمعتهما، الرسومات، الفلسفة، البحر، الليل، وحتى الصمت كان بينهما مليئًا بالحكايات. لم يعرفا الكلل أو الملل، كان كل يومٍ يحملُ مفاجأةً جديدة، حتى لم يعد هناك شيءٌ في حياتهما إلا وكان مشتركًا. كان عمر يجلس في مقهاه المعتاد، يغوص في كتابٍ جديد، لكنه لم يكن يقرأ... بل كان ينتظرها. منذ أن التقيا للمرة الأولى، بدأت حياتهما تأخذ منحى مختلفًا، كأنهما كانا شخصين تائهين، ووجدا في بعضهما الدرب الذي لم يكن ظاهرًا من قبل.

عندما جاءت ماريت، لم تذهب إلى طاولته مباشرةً. توقفت عند النادل، تبادلت معه بضع كلماتٍ وهي تشير نحو عمر، ثم تقدّمت بخطواتٍ هادئة وجلست قبالته.

- أنتَ لا تزال تسبقني إلى كل شيء، حتى إلى المقهى.

أغلق عمر الكتاب وابتسم:

- أتعلمين؟ هناك نوعٌ من الطقوس يجب الحفاظ عليه، ومنها أنني أصل قبلكِ وأنتظركِ هنا، مثلكِ تمامًا عندما تشربين القهوة قبل أن تبرد، وأنا أتركها حتى تصبح فاترة. كلٌّ منا لديه عاداته الغريبة.

ضحكت ماريت وهي ترفع كوبها الساخن:

- لكنني لن أعتذر عن هذا، لا أحب الأشياء الفاترة.

- وأنا لا أحب الأشياء المتسرعة. ربما لهذا نحن مزيجٌ غريب.

كانت تلك اللقاءات الصغيرة تكبر مع الوقت، تتحول إلى نزهاتٍ في شوارع بيروت، إلى ساعاتٍ طويلةٍ من الحديث عن الكتب والرسم والموسيقى والفلسفة. كانت تناقشه في كل شيء، وكان يهوى تحدّيها بالكلمات. لم يكن حبهما صاخباً، بل كان كالنهر الذي ينساب بين الصخور، يغيّر شكل الأشياء من دون أن يدرك أحد.

في إحدى الأمسيات، كانا يسيران على كورنيش البحر. الهواء البارد يعبث بشعر ماريت، وهي تنظر إلى الأفق حيث يختلط اللون الأزرق بالبرتقالي. وقف عمر بجانبها، يراقب الأمواج تتكسر على الصخور، ثم سألها:

- هل تؤمنين بأن بعض اللقاءات قدرٌ محتوم؟

- لا أعلم، لكنني أعلم أننا لم نلتقِ عبثًا.

نظر إليها، ثم إلى البحر مجددًا:

- وأنا لم أحب عبثًا.

تورد وجهها قليلاً، لكنها لم تُخفض عينيها عنه. بقيت تنظر إليه وكأنها ترى روحه، ثم قالت بهدوء:

- أحيانًا أشعر وكأنني كنت أعرفك منذ زمن، وكأننا لم نلتقِ بل تذكرنا بعضنا.

مرّت الأيام وهما هكذا، يعيشان في فقاعتهما الصغيرة التي ملأها الأدب والجنون المشترك. في إحدى المرات، بينما كانت ماريت تلوّن لوحةً جديدة في مرسمها، جلس عمر على الأرض بجانبها يراقبها بصمت.

- لما تنظر إليّ هكذا؟ سألت من دون أن ترفع عينيها عن اللوحة.

- لأنني أحاول أن أفهم كيف يمكن لشيءٍ بسيط، مثل طريقة تحريككِ للفرشاة، أن يكون جميلًا إلى هذا الحد.

توقفت ماريت عن التلوين للحظة، ثم وضعت الفرشاة جانبًا ونظرت إليه.

- هل تعرف ماذا أفكر به الآن؟

- ماذا؟

- أفكر بأنني أحبك أكثر مما ينبغي.

ابتسم عمر، مدّ يده وأخذ الفرشاة من يدها، ثم غمسها في اللون الأزرق ومررها على طرف أنفها بخفة، تاركًا خطًا صغيرًا من الطلاء هناك.

- وأنا أيضًا، لكنني لن أقولها بالطريقة التقليدية. سأتركها في التفاصيل الصغيرة.

ضحكت ماريت، وقبل أن تردّ، كان قد سبقها ورسم بقعةً زرقاء أخرى على خدها، فصرخت:

- عمر! ستندم!

- سأندم على كل شيء إلا على حبكِ، ماريت.

كانت تلك اللحظات الصغيرة هي ما جعلهما يقتنعان بأن حبهما لم يكن مجرد عابرٍ في الرواية... بل هو الرواية ذاتها.

لكن...

ثمّة أيام تأتي لتكسر إيقاع الأشياء الجميلة.

ثمّة لحظاتٌ تقرر أن تنهي الروايات السعيدة بطريقةٍ غير متوقعة.

وبعد الحب ماذا؟

كان صباحًا رماديًا، صباح كانون الذي يعلن اقتراب النهاية... لا شيء في الجو يوحي بأن شيئًا سيحدث، لكن قلب عمر كان يخبره بعكس ذلك.

وقف على عتبة الباب، ينظر إلى ماريت وهي تحزم حقائبها، يحاول أن يحفر ملامحها في ذاكرته، كأنه يخشى أن تذوب مع ضباب المدينة.

- هل ستتأخرين؟

قالها بصوتٍ حاول أن يجعله ثابتًا، رغم أن داخله كان يرتجف.

- لا، سأطمئن على والدي في أنطاليا وأعود... لن أتأخر.

أومأ عمر، لكن قلبه لم يطمئن. كان هناك شعور غريب يجتاحه، كأنها المرة الأخيرة التي يراها فيها.

- سأشتاق لك دائمًا.

قالها بصوتٍ خافت، وكأنها صلاةٌ يرسلها للسماء.

- وأنا كذلك...

ابتسمت، ثم اقتربت منه، وضعت قبلة على خده، قبلة باردة كطقس ذلك الصباح، لكنها حفرت نارًا في داخله.

ثم ركبت السيارة، ولوّحت بمنديلها الأبيض، وظلّ عمر يراقبها وهي تختفي في الضباب، كأنها كانت حلمًا يتلاشى، كأنها لم تكن هنا من الأساس.

قالت إنها سترحل لثلاثة أيام...

لكن الأيام سارت أسابيع، والأسابيع صارت شهورًا، ولم تعد.

حاول أن يتصل، أن يراسل، أن يبحث عنها في كل ثغرة بين الأيام، لكن كل الطرق كانت مسدودة، وكأنها سافرت إلى العدم، وكأنها كانت حلمًا جميلًا صحا منه فجأة.

زاد مرضه، وراح قعيد الفراش، تائهًا بين الهذيان والانتظار، حتى وصلت إليه أخيرًا... آخر رسائلها، عبر البريد.

...

أنطاليا، 1 مارس 2021

"صديقي عمر،

أكتب لك هذه الرسالة، وأنا جالسة أمام البحر، البحر الذي لطالما أحببته، ولطالما شعرتُ أنه الوحيد الذي يمكنني أن أبوح له بكل شيء دون خوف.

وأنت تعلم، البحر لا يُبقي سرًا، لكنه يعرف كيف يحتضنها في عمقه حتى تتلاشى... كما سأتلاشى أنا من حياتك.

لعلك تتساءل أين أنا، ولماذا لم أراسلك طوال هذه المدة... أعلم أنك كنتَ تنتظر، وأعلم أنني كنتُ قاسية، لكنني لم أكن أملك الشجاعة الكافية لأكتب لك قبل اليوم.

عمر... لا أعرف كيف أبدأ، لكنني سأقولها كما هي، دون مواربة أو تبرير...

التقيتُ بجمال من جديد.

أتذكره؟ حبيبي الأول، صديقي، وخطيبي الذي لم تكتمل قصتنا معه؟ عاد إليّ، وكأن الزمن لم يفرّق بيننا، وكأن السنوات التي قضيتها بعيدًا عنه لم تكن إلا استراحة قصيرة قبل أن نلتقي من جديد.

أعرف ما ستقوله، أعرف أنك ستتساءل كيف يمكنني أن أفعل هذا، أن أعود لمن كان في الماضي، أن أتركك، أن أتخلى عن كل شيء كان بيننا... لكن عمر، الحب ليس منطقًا، وليس اختيارًا، بل هو ذلك الشيء الذي يتسلل إلينا دون أن نتحكم به، دون أن نملك سلطة عليه.

جمال لم يكن مجرد ماضٍ بالنسبة لي، كان دائمًا شيئًا لم يكتمل، شيئًا ظلّ معلقًا في داخلي، لم يمت، لم يُدفن... وعندما رأيته مجددًا، عرفت أن قلبي ما زال له، وأنه لم يغادرني أبدًا، حتى حين كنتُ معك.

لا أريد أن أجرحك أكثر مما فعلتُ، لكنني لا أستطيع أن أكذب عليك... لم أستطع رفضه، لم أستطع أن أقول له لا ، لأنني أدركت أن روحي مشدودة له، وأن كل ما كان بيننا لم يكن إلا محاولات مني للهروب من حقيقة واحدة:

أنني لم أحب سواه يومًا.

أعرف أنني أطلب المستحيل، لكنني أرجوك... سامحني.

أنا لا أطلب منك أن تفهمني، ولا أن تتقبل ما فعلتُ، لكنني أطلب منك فقط أن لا تكرهني، أن لا تحوّل ما كان بيننا إلى كره، إلى غضب... لأنني لم أكن أكذب عندما قلت لك أنني أحببتك، وأنني كنت سعيدة معك، وأنني كنتُ أرى فيك رجلاً استثنائيًا، مختلفًا عن كل من عرفت.

لكن القلب يا عمر... القلب لا يُؤمر.

أنت قلتها لي ذات مرة: "أرواحنا غريبة، لا تستأنس إلا بمن يشبهها."

وأنا الآن أدركت أن روحي كانت دائمًا تنتمي لجمال، وأن كل ما كنتُ أفعله لم يكن سوى محاولة لتغيير مصيري، لكن في النهاية، عدتُ إليه، عدتُ لما كنتُ عليه، وعدتُ لمن كنتُ له منذ البداية.

لا تنتظرني يا عمر، لا تضيع وقتك في انتظار شيء لن يعود.

لا تحبس نفسك في ذكرياتنا، لا تجعلني جرحًا يبقى مفتوحًا في قلبك... لا أستحق ذلك منك.

ربما كنتُ أنا من ارتكب الجريمة، لكنك أنت من سينال العقاب.

أرجوك، لا تعاقب نفسك بحبي.

لا تدع هذا الحب يتحول إلى لعنة تطاردك.

امضِ في حياتك، ابحث عن حب جديد، عن قلب يستطيع أن يحتضنك كما تستحق، عن امرأة لم تحمل حبًا قديمًا في قلبها، امرأة تستطيع أن تكون لك بالكامل، دون أن يكون هناك شبح يسكنها.

أنا آسفة، آسفة بقدر ما يمكن للحروف أن تحمل من ندم...

لكنني لن أعود.

اليوم، سأفعل ما يجب أن أفعله... سأرمي بكل ذكرياتنا في البحر، تمامًا كما سأرمي هذه الرسالة بعد أن أرسلها لك.

أرجوك، افعل الشيء نفسه.

وداعًا يا عمر...

دمتَ سالمًا."

...

قرأ عمر الرسالة مرة، ثم مرتين، ثم عشر مرات، حتى حفظ كل حرف فيها، حتى شعر أن كل كلمة كانت خنجراً يثقب قلبه.

ارتجفت يداه، وتساقطت دموعه بلا صوت، بلا بكاء، فقط إحساسٌ ثقيلٌ يشبه الموت.

"ليت رسالتك لم تصلني...
ليتني ظللتُ أنتظر المجهول...
ليتكِ تركتِ لي وهمًا صغيرًا أعيش عليه، أو أصدق أنكِ ستعودين يومًا..."

أغلق الرسالة، وشعر أن قلبه قد أغلق معها.

"لا أدري ماذا فعلتُ لكِ...

ماذا فعلتُ لأستحق هذا العذاب؟

لكن...

أنتِ محقة.

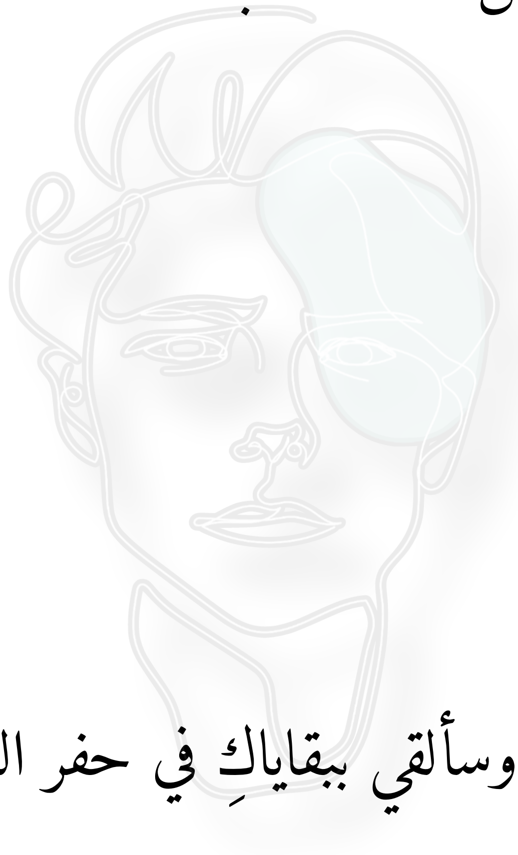

سأنساكِ.

سأنسى من أنتِ، وسألقي ببقاياكِ في حفر النسيان.

وداعًا يا أجمل وهمٍ عشته يومًا.

بيروت، عام ٢٠٢٤

عاد عمر إلى بيروت أخيرًا، بعد سنتين من الغياب، سنتين كانت كفيلتين بأن تمحو كل شيء من ذاكرته، كفيلتين بأن يجعلاه ينسى نفسه، وكأن تلك السنوات كانت بمثابة حلم طويل، أو ربما كابوس. فبينما كانت بيروت بالنسبة له كل شيء، وذكرياته فيها متشابكة بين صفحات الكتب ورائحة القهوة في المقهى الذي أحب، كانت هذه العودة بمثابة العودة إلى اللاشيء.

كان قد أخذ استراحة مع روحه في الخارج، محاولة لتصفية ذهنه، لتجميع شتات نفسه التي تفرقت في زوايا الزمان والمكان. ولكنه عاد في كانون، في نفس الشهر الذي غادر

فيه، كما لو أن الزمن نفسه كان يسخر منه. كان يعتقد أنه هرب من كل شيء، لكنه اكتشف أن الهروب ليس حلاً، هو مجرد محاولة لتأجيل المواجهة مع الذات.

مرَّت سنتان لم يقرأ فيهما كتابًا واحدًا، ولكنه كان يكتب، يكتب قصته الخاصة التي لطالما خشى أن يرويها لأحد، لكن اليوم كان مختلفًا. اليوم عاد إلى بيروت، إلى ذاته، إلى الكتب. كان بحاجة إلى القراءة ليجد نفسه الضائعة التي سكنت بين صفحات تلك المدينة الجميلة.

حمل حقائبه، واستقل سيارة أجرة، وودّع المدينة التي كانت تجري في شرايينه، حتى وصل إلى الحي الذي يعرفه عن ظهر قلب.

"رجاء أن لا تكون هناك" همس لنفسه وهو يقف أمام المبنى الأبيض الذي كان يراه دائمًا حافلاً بالحياة.

ولكن، كما كان يخشى، كانت المفاجأة التي لم يتوقعها في انتظاره: مكتبة العم وهيب كانت مغلقة. حيث كانت الكتب غائبة، والرفوف خالية، كما لو أن شيئًا عظيمًا قد اندثر مع اختفاء صاحبها.

نظرت عيناه من خلال الزجاج إلى داخل المكتبة، حيث الغرفة خالية من أي أثر للكتب أو الحياة التي كانت تنبض في ذلك المكان. كانت تلك المكتبة بمثابة ملاذ له، ومكانًا يحتضن أفكاره وأحلامه.

"أين العم وهيب؟" سأل عمر بلهفة.

"لقد مات يا ولدي، وماتت معه الكتب والفلسفة، إن كنت قاصداً المكتبة فهي لم تعد لقد دفنت معه يا عمر، لقد تغير الحال، أرحل يا عمر فلا ما تقصده هنا، ولا الذي كان يقصدك هناك ..." أجاب العم كمال.

كلمات العم كمال كانت بمثابة صاعقة. ما من مكان في بيروت يعيد له روح المدينة التي كان يعتقد أنها ستظل كما هي، لكن تغير الزمن كان يطارد حتى الأماكن المحبوبة.

"أمتنا لا تقرأ، وإن قرأت، لا تعي ما تقرأ..." أضاف العم كمال، وكأن الكلمات كانت لطمًا على قلبه.

دمعت عيناه، ولم يجد عمر نفسه إلا وقد ابتعد عن المكان، تمامًا كما كان قلبه يبتعد عن بيروت التي تغيرت مع الأيام. شعر وكأن الليل قد أسدل ستارته، تاركًا إياه وحده في مواجهة المطر، والذكريات، والضياع.

ثم، وفي تلك اللحظة، رأى ماريت. شعر أن قلبه عاد ليخفق مجددًا، كما لو أن الحياة نفسها كانت تطرق باب قلبه من جديد. كانت تقف هناك، بشعرها الأسود الطويل وعيونها البنية، كما كانت في ذاكرته.

همس اسمها في نفسه، "ماريت..."، وتقدمت قدماه نحوها، لكنه توقّف فجأة. ظهر جمال، زوجها، حاملاً طفلهما بين يديه.

في تلك اللحظة، أدرك عمر أن الماضي لا يعود، وأن بعض الأشياء يجب أن تبقى في مكانها. وضع القبعة على رأسه، مسح دموعه التي اختلطت مع تساقط المطر، وألقى النظرة الأخيرة على ماريت.

ثم، في صمتٍ غريب، اختفى في الضباب، عائدًا إلى المجهول حيث بدأ كل شيء، لي تلاشى إلى ما لا نهاية.

تمت بحمد الله

حساباتُ الكاتب:

Omar_mto

Omar_mto

Omar_mto